مقياس الفلسفة الغربية الحديثة

سبينوزا أو وحدة الجوهر.

نبذة عن حياته: ولد عام 1632 في امستردام من عائلة يهودية، كانت قد هاجرت من اسبانيا إلى هولندا هربا من الإضطهاد الديني، درس التلمود والتوراة وبعض الفلاسفة اليهود مثل ابن ميمون. حرم من الكنسية واعتبر زنديقا كافرا، مما اضطر به إلى مغادرة امستردام إلى "لاهاي" حتى توفي عام 1677. و لسبينوزا مؤلفات عديدة منها : كتاب الأخلاق وهو أهم كتبه وكذلك رسالة سياسية ورسالة لاهوتية سياسية وبحث في إصلاح العقل...

اتخذ سبينوزا من الهندسة نموذجا بنى وفقها أهم ماجاء في فلسفته. فكما أن الهندسة تبدأ بقضايا صادقة كذلك في نظره يقتضي البحث عن الحقيقة أن يبدأ بقضايا صادقة تتخذ نقطة انطلاق في بناء المعرفة التي ترمي إلى تحقيق السعادة.

وإذا كان ديكارت قد وجد في النفس أو الأنا نقطة البداية فإن سبينوزا قد وجد في الله نقطة البدأ انطلق منها في بناء المعرفة.

يرى سبينوزا أن الفكرة الصادقة هي التي تكفل ذاتها بذاتها فلا تفتقر إلى مايضمن صحتها. وإلا تأدى بنا الأمر إلى مراجعة لامتناهية، وبالتالي إلى الشك المطلق. فإذا أردنا معرفة فكرة صادقة لانحتاج إلى معرفة فكرة أخرى لمعرفة الأولى ولا إلى فكرة ثالثة لمعرفة الثانية وهكذا دواليك.

ولذلك ينبغي أن نعتمد الطريقة الصحيحة في البحث على فكرة تكفل ذاتها بذاتها، أو بتعبير سبينوزا يتجلى وضوحها من خلال ماهيتها الذاتية. ويطلق سبينوزا على هذه الفكرة اسم الفكرة الوافية أو الفكرة الصادقة وهي معيار الصدق.

وهذه الفكرة الوافية التي يقصدها سبينوزا هي الله، ومما يلزم كذلك عن فكرة الله أن نؤمن بوحدة الوجود، أي أن الله والطبيعة شيء واحد. ولكن إذا كان الله على نحو ماتراه الأديان التقليدية كائنا مفارقا للطبيعة، فإن ينبغي أن يكون متناهيا وبالتالي ناقصا. وهكذا إذا كان الله لامتناهيا فمن المحال أن يقوم شيء خارجه بل ينبغي أن يحتوي كل شيء ويكون هو الطبيعة شيء واحد. وعليه فإذا أردنا أن جعل الله موضوع عبادتنا فلابد من توحيده بالطبيعة.

ومع أن الله والطبيعة بما هي كل شيء واحد فإن سبينوزا يميز بين الإثنين ويستخدم التعبيريىن: الطبيعة الطابعة la nature naturante والطبيعة المطبوعة la nature naturée . يقول سبينوزا في هذا السياق:" نفهم بالطبيعة الطابعة كل ما هو كائن في ذاته ومتصور من خلال ذاته أو صفات الجوهر التي تعبر عن ماهية أزلية ولامتناهية، وبكلمة أخرى الله بقدر ما يعتبر شيئا حرا، ولكن نفهم بالطبيعة المطبوعة كل مايصدر أو يتلو من طبيعة الله أو أية صفة من صفاته بالضرورة اي كل أحوال صفات الله بقدر ما تعتبر أشياء في الله ولايمكن أن تكون أو تتصور بدونه".

نخلص من هذا إلى أن الله او الطبيعة بما هي كل جوهر وحيد موجود بالضرورة، وهو السبب الحر للأشياء كلها ولكنه يعمل من ضرورة طبيعته وحدها، وأن الأشياء كائنة فيه وتعتمد في وجودها عليه بحيث لايمكن أن توجد او تتصور بدونه، وإنه قد حدد الأشياء وقررها لابفعل إرادته الحرة بل بطبيعته المطلقة، ولاتعارض بين هذه الأوصاف ومفهوم الطبيعة من حيث هي مبدأ خلاق أو بوصفها النظام الكلي للأشياء.